نجيب نصّار
شيخ الصحافة العربيّة في فلسطين

الدكتور قسطندي شوملي*

عصره

عاش الشيخ نجيب نصّار (١٨٧٣-١٩٤٨) في حقبة تعتبر من أبرز حقبات تاريخنا الحديث وأهمّها. فلقد كان النصف الأوّل من هذا القرن غنيًّا بالأحداث السياسيّة والفكريّة والاجتماعيّة، إذ تميّز من الناحية السياسيّة بالتململ العربيّ ضدّ السلطة العثمانيّة ممّا أدّى في النهاية إلى ولادة الثورة العربيّة الكبرى، وصارت المطامع الاستعماريّة تظهر جليّة للعرب، وبدأت المطامع الصهيونيّة بإقامة وطن قوميّ لليهود على أرض فلسطين، إضافة إلى الحرب العالميّة الأولى وما جرّت من ويلات ونكبات. أمّا من الناحية الفكريّة فقد تميّزت بداية هذا القرن باليقظة العربيّة، وتجلّى ذلك بإقامة الجمعيّات وانتشار الصحف والمجلاّت وكثرة الاجتهادات السياسيّة القوميّة، والنهضة الثقافيّة، والتأثّر بالغرب والانفتاح عليه وعلى حضارته وفكره. ولأنّ الأدب كائنٌ حيّ يتأثّر بما حوله، فكان من الطبيعيّ أن تنعكس هذه الأمور مجتمعة فيه، على اختلاف ألوانه وأجناسه، وكان من الطبيعيّ أيضًا أن تنهض فيه ألوان جديدة هي وليدة هذه الظروف. أمّا من الناحية الاجتماعيّة فعمّ البؤس وخيّم الفقر على

(*) أستاذ في جامعة بيت لحم.

السواد الأعظم نتيجة للسياسة العثمانيّة، خاصّة أيّام الحرب الأولى، واستتبع ذلك هبوط في الأخلاق والعلاقات والقيم.

نشأته وثقافته

كان نجيب نصّار الملقّب بشيخ الصحافة الفلسطينيّة، من طلائع الصحفيّين والكتّاب والمبدعين في النصف الأوّل من هذا القرن، وتميّزت شخصيّته بانفتاح الذهن وسعة الأفق والاطّلاع على الآداب العربيّة والعالميّة، وكان مرتبطًا بمجمل الأحداث السياسيّة أشدّ الارتباط، تنقّل في الوطن العربيّ راكضًا وراء قضيّة حرّيّة الأمّة العربيّة جمعاء واستقلالها. وتقلّب في أعمال مختلفة ونشاطات سياسيّة ووطنيّة لا حصر لها، قبل أن يستقرّ مُنشِئًا صحيفة الكرمل ومطبعتها، والتي أعطاها ربع قرن من حياته. وقد ولد نجيب نصّار في قرية عين عنوب في لبنان عام ١٨٧٣، ودرس الابتدائيّة في الشويفات، وأتمّ تعليمه الثانويّ في سوق الغرب، والتحق بالجامعة الأمريكيّة في بيروت حيث درس الصيدلة والعلوم السياسيّة. وعمل في الصيدلة في مدينة طبريّا في المستشفى الأسكتلنديّ، ثمّ انتقل إلى سلك التعليم في القدس وعلّم في مدارسها المختلفة، وغادرها بعدئذ إلى حيفا لاحقًا بإخوته إبراهيم نصّار صاحب فندق نصّار، والدكتور أسبير نصّار ورشيد نصّار صاحب صيدليّة نصّار في حيفا أيضًا. وسكن في مدينة حيفا حتّى سنة ١٩٤٤، انتقل بعدها إلى بيته في بيسان، وهناك أصيب بمرض رئويّ حادّ ونقل إلى المستشفى الإنجليزيّ في الناصرة، وتوفّي في اليوم الثالث من آذار سنة ١٩٤٨ ودفن في مقبرة الروم الأرثوذكس في الناصرة.

كان نجيب نصّار قصير القامة يميل إلى البدانة، ويلبس طربوشًا مائلًا إلى الأمام على طراز طرابيش تجّار بيروت. وكان موظّفو الحكومة والبلديّة يكلون إليه قضاياهم، واشتغل بالأراضي وكان قريبًا من الفلّاحين. وكان قد يئس من العيش في ظلّ الحكم التركيّ، فقرّر الهجرة إلى بلاد أخرى. ولكن لمّا أعلن الدستور عام ١٩٠٨، قرّر البقاء في البلاد، وأسّس صحيفة الكرمل

وكرّسها لمهاجمة الاستيطان. ويصف الباحث عمر الصالح البرغوتي في صحيفة مرآة الشرق[1] نجيب نصّار فيقول:

«... رَبِي في حضن أبيه، فلقّنه الرجولة، ودرّبه على الفتوّة، وبعث به إلى المدرسة في القدس، فأخذ شهادتها وتعيّن معلّمًا في إحدى مدارسها، ثمّ شرحت نفسه إلى ما أبعد مدى من التعليم، فصار ترجمانًا للسيّاح، فوجد في هذه الصنعة الجديدة لذّة في العمل وسعة في المكان، فاسترسل لها، ثمّ هجرها وعكف على مباطاة الزراعة، واختلط بقبائل البدو الرحّالة وأبناء القرى والبوادي فارتاح لتلك المعيشة، فكان يَقري ويُقري، ويضيف ويضاف. وكان عنده من الحرّاثين والمزارعين والقطّارين عدد وافر. وكان يجمع ويوزّع ويجود ويربح كأنّه منهم، فاقتبس لهجتهم الكلاميّة، واقتنى بعض الجياد العربيّة وتأنّق في سروجها، وعاشر الطبقات المختلفة وتغلغل في معرفة أخلاق الفلاّح حتّى وصل إلى ذريرات دماغه وتقاليده. تعاطى المحاماة فرافع ودافع ونصر الحقّ ونكس أعلام الباطل.. كان محاميًا ثمّ انصرف من المحاماة إلى الحرف الحرّة أيضًا. خاض خضمّ الصحافة وشرع في تأسيس جريدة الكرمل، فصادف إقبالًا من الناس وانتشرت جريدته بسرعة وهي التي نبّهت الناس إلى الأخطار الصهيونيّة، وكيف كان الصهيونيّون يغمزون اقتطاع فلسطين عن البلاد العربيّة لتأسيس حكومة يهوديّة فيها... إنّ أكثر تجّار الوطنيّة اليوم كانوا يهزأون منه آنذاك. تقلّب طوال حياته في أحضان المهن الحرّة، وكان إذا لم يصادفه التوفيق في ناحية هجرها إلى أخرى، حتّى استقرّ في مهنة الصحافة الشريفة. فهو لم يعش اتكاليًا ولم يتربَّ على «طلامي» دير الروم، ولم ينبت في محيط سافل فعاش موفور الكرامة... إنّهم زمن الحرب بأنّه عربيّ فاختفى، ترجم كرّاسه في الصهيونيّة، أوّل مَن نبّه على غرس الأشجار، لغته ركيكة فهي لا تزال منذ صدور أوّل عدد الكرمل إلى يومنا هذا في مستوى واحد».

---

(١) جريدة مرآة الشرق، ٢٢ أيلول ١٩٢٧، العدد ٥٢٥.

وهكذا نرى أنّ نجيب نصّار كان واسع الاطّلاع والثقافة ومن مركّبات شخصيّته ارتباطه بالأرض والناس، والتنقّل في القرى والمدن والعشائر البدويّة ومشاركتهم حياتهم وهمومهم وقضاياهم القوميّة والوطنيّة. كما وقف في وجه السلطة العثمانيّة، الأمر الذي ميّز طلائع الحركة الوطنيّة الحقيقيّين في تلك المرحلة الحسّاسة، إضافة إلى وقفته في وجه المطامع الصهيونيّة بفلسطين. ولقد صدق نجيب نصّار في كلّ تحذيراته وكذب كلّ أولئك الذين قنّعوا الاستعمار البريطانيّ بقناع صديقتنا بريطانيا.

لقد عاش نجيب نصّار وأصدر جريدته الكرمل في الفترة نفسها التي عاش فيها عيسى العيسى الذي أصدر جريدة فلسطين، والتي تعتبر بحقّ أمّ الجرائد الفلسطينيّة. وإذا أراد الباحث أن يذكر أهمّ صحف فلسطين في مطلع هذا القرن، فإنّه يذكر صحيفة فلسطين في يافا، وجريدة الكرمل في حيفا، وجريدة مرآة الشرق التي كانت تصدر في القدس. ويقارن عجاج نويهض بين صاحب الكرمل نجيب نصّار وصاحب فلسطين عيسى العيسى فيقول:

«بين الرجلين، عيسى العيسى ونجيب نصّار نقاط تشابه ثمّ نقاط لا تشابه. أمّا المتشابهة فهي أنّ كلًّا منهما الفارس المعلّم في مبارزة الصهيونيّة من قبل إعلان الدستور العثمانيّ، ثمّ بعد ذلك اطّرادًا إلى آخر الشوط. هذا في حيفا وذاك في يافا من ثغور فلسطين. كلاهما تعرّض للنقمتين، نقمة اليهود ونقمة الأتراك، في سبيل فلسطين الحبيبة. أمّا نقاط الاختلاف فهي أنّ نجيب نصّار - وهو لبنانيّ الأصل - كان يرى أنّه يجب أن يكون من الممكن استمالة الإنكليز إلى وجهة النظر العربيّة في فلسطين، وعيسى العيسى كان على غير هذا الرأي. وفي حين كان عيسى العيسى شاعرًا، إلى جانب فنّه الصحفيّ، كان نصّار لا يعنى بغير النهضة الصحفيّة المجرّدة، فلم يرَ نفسه أنّه قد خلق لشعر أو أدب، بل لمقارعة اليهود. ثمّ إنّ نصّار مات ولم يشهد النكبة إذ كانت وفاته في الناصرة أواخر ١٩٤٧، في حين أنّ عيسى العيسى شهد النكبة كلّها... وشرب كأسها حتّى

الشمالة. وعيسى العيسى نفي إلى الأناضول خلال الحرب الأولى، أمّا نصّار فإنّه قد توارى عن الترك في الغور مدّة سنين، ثمّ لمّا سئم حياة التواري في الأغوار والبراري، وكان مطلوبًا من السلطة العسكريّة التركيّة، اتّصل بأصدقائه الخُلّص وعلى أيديهم سلّم نفسه، فسجن في دمشق حتّى انتهت الحرب ووقع الاحتلال. ثمّ عاد إلى حيفا واستأنف إصدار الكرمل مرّة في الأسبوع، على غرار عيسى بإصداره فلسطين في يافا مرّة في الأسبوع. ولنجيب نصّار عدّة مؤلّفات في الصهيونيّة وكتاب في الزراعة الجافّة ورواية مفلح الغسّانيّ حكى فيها قصّة شدائده لمّا كان في الغور وقت الحرب. هو صخرة صمّاء من صخرات العرب في وجه الصهيونيّة على الأقل ٥٥ سنة، وكذلك عيسى العيسى. فإذا ما ذكرت صخيفتان ناقمتا اليهود مناقمة مُرّة أمدًا طويلًا، كانت الكرمل وفلسطين في الطليعة»[٢].

آثاره وأدبه

ألّف نجيب نصّار عدّة كتب باللغة العربيّة منها: مجموعة من الروايات وهي رواية مفلح الغسّانيّ ورواية في ذمّة العرب (١٩٢٠) ورواية شمم العرب ورواية الأميرة الحسناء، ومنها كتب مثل: الرجل وهو يدور حول حياة الملك عبد العزيز آل سعود، والزراعة الجافّة (١٩٢٧) وهو ترجمة لكتاب العالِم الزراعيّ الكبير جون ودتو رئيس كلّيّة أتوا الزراعيّة، والقضيّة الفلسطينيّة والصهيونيّة، فقد قام بترجمة مادّة الصهيونيّة من دائرة المعارف اليهوديّة. ونشر في العام ١٩٢٠ سلسلة مقابلات مهمّة تحت عنوان الصهيونيّة، تاريخها وغرضها وأهمّيّتها ونشر هذه المقالات في ما بعد كتابًا مستقلًّا على حسابه. إستيقظت روحه الوطنيّة المرهفة على الأخطار المحدقة بفلسطين، وراح يؤكّد أنّ المعركة هي معركة على أرض الوطن، وقام بحملة إعلاميّة فكريّة مهمّة إذ نشر المقالات في المقطّم

(٢) عجاج نويهض: رجال من فلسطين، بيروت، منشورات فلسطين المحتلّة، ١٩٨١، ص ٣٠.

المصريّة ولسان الحال اللبنانيّة، داعيًا العرب إلى اليقظة، مؤكّدًا أنّ الخطر الذي يهدّد فلسطين يهدّد العرب قاطبة أرضًا وكيانًا ومستقبلًا.

وتظهر آراء نجيب نصّار من خلال روايتين خلّفهما لنا إبّان الحرب العالميّة الأولى وبعدها، هما: مفلح الفسّانيّ وفي ذمّة العرب. وكانت القصّة فنًّا جديدًا في فلسطين، ولم يُظهر كتّاب القصّة في تلك المرحلة المبكرة عناية كافية بشكلها الفنّيّ، وذلك لقلّة الموروث القصصيّ، ولكون القصّة في تلك الفترة تهدف إلى التسلية والترفيه أو التعليم والوعظ والتثقيف. ولقد دفع نجيب نصّار إلى كتابة القصّة ثلاثة أمور: شيوع القصّة الترفيهيّة التعليميّة المسلّية في مصر وغيرها من البلاد العربيّة، ولفت نظر قرّاء صحيفة الكرمل إلى الموضوعات السياسيّة التي كان يكتبها بجرأة كبيرة مدافعًا بها عن الوطن، إضافة إلى التصريح بما لم يكن يستطيع التصريح به في مقالاته السياسيّة الصحفيّة. وتشهد روايتا مفلح الفسّانيّ وفي ذمّة العرب على نبوغ نجيب نصّار فكريًّا وأدبيًّا. وكان في روايته الأولى قد وقف موقفًا توفيقيًّا خاطئًا، فكتب الثانية ليصرّح بقوميّته وبشجاعة أبناء دينه.

«تستحضر الرواية الأولى مفلح الفسّانيّ فترة الحرب العالميّة الأولى، وتجري في أماكن عديدة جدًّا. وتبدأ بالطريقة التقليديّة وهي أن يأتي الرسول لينذر. ويظهر هنا مفلح في بداية الرواية رجلًا مثقّفًا ومفكّرًا مجرّباً ومحبًّا لوطنه وشعبه. ويدعو إلى تكاتف العثمانيّين والعرب لردع الخطر الداهم، ورغم ذلك يُلاحق وتتعرّض حياته للخطر فيضطرّ إلى الاختباء، ويختار الناصرة وبيت كامل قعوار بالذات. وهنا تبدأ الأحداث بالتوالي سريعًا، ونتعرّف إلى عدد كبير من الشخصيّات الفاعلة الحقيقيّة على الساحة العربيّة والعثمانيّة عامّة، وعلى الساحة النصراويّة خاصّة. وفي غمرة هذه الأحداث المثقلة بالشخصيّات، نقف على آراء مفلح العامّة وذلك من خلال تصريحات شخصيّة أو من خلال تصريحات الشخصيّات الأخرى. والرواية لا يجمع بين أجزائها حدث محوريّ واحد، بل تحتوي على مجموعة من الأحداث المتلاحقة لا يجمع بينها سوى شخصيّة البطل

مفلح. وهي تظهره رجلًا عبقريًا إيديولوجيًا، يفهم السياسة جيّدًا بكلّ أبعادها وملابساتها، ويجاهر بآرائه بجرأة نادرة. والرواية الثانية في ذمّة العرب تشبه الروايات التاريخيّة. ولقد كتبها نصّار بعد الحرب الأولى، مع أنّه ذكرها في رواية مفلح الفسّانيّ خلال إقامته في الناصرة. والرواية تركّز على حادثة تاريخيّة مشهورة هي موقعة «ذي قار» في القرن السابع، فيوظّفها الكاتب لخدمة هدف قوميّ. وهو يؤكّد في هذه الرواية دور العرب المسيحيّين في بثّ الروح القوميّة، وفي رفع ذكر العرب وفي إخلاصهم لعروبتهم. ويقتطع الكاتب هذه الحادثة التاريخيّة ليشيد عليها رسالة تعليميّة وعظيّة تقول: «أيّها العرب اتّحدوا كما فعلتم يوم ذي قار، عندئذ تفرضون هيبتكم». وللرواية أبعاد فلسفيّة تدور على العدل والمساواة والتضامن والقوّة والمحبّة والإيثار والتواضع»[٣].

«واشتهر نجيب نصّار بجدّيّة أبحاثه وعمقها وبصلب مبادئه ومواقفه السياسيّة الواضحة، وكان أوّل مَن أقام نقابة للأدباء، وقد تألّفت في حيفا بمقتضى نظام جمعيّة النهضة الاقتصاديّة العربيّة المعترف بها من الحكومة باسم «حلقة الأدب». وحلقة الأدب هذه غايتها مناصرة الأدب ونشر الآداب بكلّ طريقة ممكنة، ومحاربة الفساد وسوء الأخلاق. كما كانت تهدف إلى أن تسدّ فراغًا كبيرًا في أجواء مدينة حيفا الأدبيّة وتنشئ رابطة بين الأدباء، وأن تشجّع الخطابة وتدرّب لحيفا خطباء تكُون فيهم الكفاءة، وأن تنظر في نقائص مجتمعنا الأدبيّة، وتعمل على التنبيه إليها والحضّ على استئصالها بواسطة خطب عموميّة أو مقالات تدرج في الصحف السيّارة، وأن تنظر في التعليم البيتيّ والمدرسيّ وتنبّه إلى القصور فيه، وأن تهتمّ بنشر الكتب الأدبيّة وترويجها، وأن تقف على أخبار كلّ أديب يمرّ بحيفا أعربيًا كان أم أجنبيًا وتسعى للانتفاع بعلمه وأدبه، وأن تنظر في أمر حياة الشبيبة فتكتب المقالات عنها، وأن تشرف على ما تنشره الجرائد والمجلّات حينًا بعد حين في نشر مقالات تحضّ على إجلال مكان القلم

(٣) حبيب بولس: «مع نجيب نصّار في روايتيه مفلح الفسّانيّ وفي ذمّة العرب»، ندوة، الناصرة، ٢٣-٣-١٩٩٠.

وصيانة منزلة الأدب كلّما رأت اقتضاء ذلك»[٤].

وكتب نصّار مجموعة من الرسائل تحمل عنوان رسائل صاحب الكرمل نشرها وليد خليف في كتاب العام ١٩٢٢[٥]. ورسائله هذه هي أقرب إلى أدب الرحلات عند العرب منه إلى أيّ نوع أدبيّ آخر، وفيها يبدي الكاتب رأيه في عدد من الأمور والقضايا التي رآها وفحصها بدقّة، وذلك من خلال تجواله في أنحاء فلسطين وشرقيّ الأردنّ بين السنوات ١٩٢٢ و١٩٢٥، ولقد نشر الكتاب تباعًا في جريدته بين هاتين السنتين. وهي نتاج رحلة ميدانيّة قام بها في أرجاء فلسطين والأردنّ، ومَن تصفّح هذه الرسائل وجد أنّها ذات شريط أنطولوجيّ واسع يشمل جوانب عديدة متنوّعة من حياتنا في تلك المرحلة. كما تكوّن مرجعًا للعديد من الدارسين على تنوّع اهتماماتهم واختلاف تخصّصاتهم. كما يجد فيها القارئ العديد من الفوائد والإشارات إلى قضايا وموضوعات، لم يلتفت إليها الكثير ممَّن أرّخوا لفلسطين بين الحربين. وتزوّد هذه الرسائل مرجعًا حيًّا صادقًا لحقبة تاريخيّة مهمّة من حياة فلسطين ما زالت تحتاج إلى الدراسة والبحث، وكان القصد من هذه التحولات في المدن والقرى تدوين المشاهدات والملاحظات لتصبح وثيقة مهمّة لمَن يريد أن يتعرّف إلى البلاد وأجوائها ومشاكلها في ذلك الحين. كما كان القصد أساسًا التوعية من الخطر الصهيونيّ والمطامع الأجنبيّة. وفي ما يلي نموذج من هذه الرسائل: يقول تحت عنوان الحقيقة الجارحة:

«من أشدّ الأمور إيلامًا أن يضطرّ الإنسان إلى التصريح بحقائق جارحة خدمة للمصلحة والتاريخ والحقيقة التي تحاشينا التصريح بها في ما مضى، ونضطرّ إلى المجاهرة بها اليوم، وهي أنّنا في جهادنا مدّة سبع عشرة سنة وجدنا أنّ معظم الحركات الوطنيّة التي حاولنا أن نقوم بها مع الوجهاء والمتزعّمين في المدن، كانت تفشل، وأنّ المتعلّمين إلى الآن لم يتّخذوا لهم موقفًا صريحًا، بل تراهم دومًا يتردّدون أو بعبارة أخرى

(٤) جريدة الكرمل، ٢٧ أيلول ١٩٢٢.

(٥) وليد خليف: رسائل صاحب الكرمل، الناصرة، ١٩٩٢.

يقدّمون رجلًا ويؤخّرون أخرى، ولم يقوموا بعد بأعمال تستجلب الأبصار أو تنعش الآمال ليثق الشعب بهم. ولذلك قرّرنا لمّا صمّمنا على القيام بهذه الرحلة، أن نزور بعض القرى في كلّ قضاء لنتعرّف إلى القرويّين وأحوالهم الاجتماعيّة والاقتصاديّة، ونقف على نفسيّاتهم ونرشدهم إلى ما نعتقده صالحًا لهم، ونستوحي منهم المادّة الضروريّة لعملنا الصحافيّ ولنعلم إذا كان يمكن أن نعمل وإيّاهم»[٦].

«هذا وإنّ قيمة هذه الرسائل لا تكمن في كونها تشمل قطاعات واسعة من حياة الشعب الفلسطينيّ، بل إنّها تكمن في طريقة العرض والوصف والمعالجة. يتطرّق نجيب نصّار إلى عدد من العادات والتقاليد الشعبيّة والدينيّة التي كانت شائعة في فلسطين آنذاك، كما إنّه يصف حياة البدو بحلوها ومرّها وحياة الفلاّحين بحسناتها وسيّئاتها، وكذلك يذكر أسماء عدد من الرياديّين في حياتنا في عدد من المجالات العلميّة والعمليّة، هذا فضلًا عن وصفه الأسواق والمتاجر ودعوته إلى الوحدة والتكاتف والتسامح. ويجد القارئ في الرسائل شرحًا وافيًا للحالة الاقتصاديّة التي كانت في فلسطين والوضع المادّيّ المتردّي وأسبابه وطرق العلاج والحلّ، كما يقف على حالة المواصلات العامّة والطرق والجمعيّات الاقتصاديّة وحالة الزراعة وطرقها وأنواعها، وكذلك التجارة وأساليبها وما يتعلّق بها. وكي تكون الصورة واضحة يعقد الكاتب مقارنات كثيرة مع حالة المستوطنات اليهوديّة الجديدة التي أقيمت حديثًا على أرض عربيّة. ونجد في الرسائل وصفًا لحالة المدارس وأوضاعها ونواقصها، وشرحًا عن التعليم وأساليبه وأنواعه وطرقه وعن المدرّسين الوطنيّين وعن عدد الطلاّب والطالبات والموضوعات التدريسيّة وعن اهتمام السلطة بذلك. كما أنّ الكاتب يذكر مفصّلًا الحالة الثقافيّة العامّة سواء أفي ذكره المسارح والتمثيل كان ذلك أم في ذكره المكتبات وما شابه. كما نجد وصفًا للحالة الصحّيّة في حينه كالنظافة والصحّة العامّة

(٦) وليد خليف: رسائل صاحب الكرمل، ص ١١٧-١١٨.

والعيادات والمستشفيات والأطبّاء. وتحتوي الرسائل على معلومات وفيرة عن المواقع الفلسطينيّة، حيث إنّ الكاتب يذكر الأحداث التي مرّت عليها عبر التاريخ. كما نجد ذكر عددٍ كبير من القرى وعائلاتها ورجالاتها وأهمّيّة مواقعها. وتحفل الرسائل أيضًا بالنقد والاحتجاج والإشادة، إلى مواقف وطنيّة متعدّدة فيها الكثير من نقد السلطة ورجال الشرطة وبائعي الأرض والخونة والعملاء الذين باعوا ضمائرهم من أجل المال، كما فيها حثّ لأصحاب الضمائر الحيّة كي يستيقظوا من آفة الخمول ليباشروا مهمّاتهم الوطنيّة علّهم ينقذون بذلك البقيّة. ومن اللافت للنظر أنّ نجيب نصّار بنى رسائله بناء جيّدًا، فهو يتناول كلّ مدينة أو قرية زارها على حدة، يشرح في البداية الوضع السائد وقد يقدّم نبذة تاريخيّة ثمّ ينتقل لذكر الإيجابيّات ويشدّد عليها ثمّ السلبيّات وينفر منها، ثمّ يأتي بالحلّ. هكذا كتب عن عكّا وعن بيسان والناصرة ونابلس وسائر المدن في فلسطين»[٧].

«ولقد التقى نجيب نصّار خلال هذه المسيرة الميدانيّة في أرجاء فلسطين وشرق الأردنّ، شاعر الأردنّ مصطفى وهبي التلّ الملقّب بـ«عرار»، ووجد لديه ميولًا تشبه ميوله، ولمس الشاعر «عرار» في جريدة الكرمل جرأة في الدفاع عن الحقّ وصراحة في تحذير العرب من الصهيونيّة البغيضة والطائفيّة المقيتة. وقام «عرار» ونصّار بالتبشير بالقوميّة العربيّة والتحذير من قوى الاستعمار، ولقد زارا الناصرة العام ١٩٢٢ لهذا الغرض ونصحا فئات فيها أن تترك سياسة الإتجار بالدين. وكان نصّار قد أسّس في العام ١٩١٨ الحزب العربيّ في مدينة الناصرة، ولمّا ذهب إلى مدينة نابلس من أجل تأسيس فرع لحزبه، تصدّى له الحاكم البريطانيّ وأرغمه على العودة إلى الناصرة مشيًا على قدميه. وفي العام ١٩٢٤ ذهب نجيب نصّار مع «عرار» إلى مدينة الكرك في شرق الأردنّ وشرعا في الدعوة إلى القوميّة العربيّة ومناجزة الاستعمار»[٨].

---

(٧) حبيب بولس: رسائل صاحب الكرمل، ندوة، الناصرة، ٢ نيسان ١٩٩٢.

(٨) يعقوب العودات: من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، القدس، دار الإسراء، ١٩٩٢، ص ٦٣٢-٦٣٥.

جريدة «الكرمل»

وَلِيَدعم نصّار القول بالعمل ولِيُسجِّل على القرطاس صرخاته المدوّية، أسّس جريدته الكرمل العام ١٩٠٨، وكانت هذه الجريدة هي مشروع حياة نجيب نصّار بلا شكّ. بثّ فيها مبادئه وآراءه السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة والاقتصاديّة النيّرة، وكان لها ملفّ خاصّ في وثائق الحركة الصهيونيّة كما كان ملفّ خاصّ لنجيب نصّار نفسه. وصحيفة الكرمل هي من أقدم الصحف الفلسطينيّة، وصدر العدد الأوّل منها بتاريخ ٢٧-١-١٩٠٨. وكانت تصدر مرّة واحدة في الأسبوع حتّى العدد ٧٥ الذي صدر بتاريخ ٦ آب ١٩١٠، إذ أصبحت تصدر مرّتين في الأسبوع يومي الثلاثاء والجمعة. وكانت تصدر بمقياس ٣٧ ب ٢٦ سم واعتبارًا من العدد ٤٢ أصبحت تصدر بمقياس ٤١ سم ب ٢٧ سم. ويقول جميل البحري في كتابه تاريخ حيفا الصادر سنة ١٩٢٢: الكرمل جريدة عربيّة تصدر مؤقّتًا مرّتين في الأسبوع لصاحبها السيّد نجيب نصّار واشتراكها في فلسطين ١٢٥ قرشًا مصريًا و١٥٠ في الخارج». وحاول أوّلًا التوفيق بين العرب والترك تفاديًا للثغرات التي تهدف الصهيونيّة العالميّة والدول الغربيّة إلى إحداثها في هيكل الرجل المريض، وإجهازًا على الإغراءات الصهيونيّة للمسؤولين الأتراك بملايين الدنانير وعشرات الحسناوات وإقناعهم بمحاسن قيام «دولة إسرائيل» في قلب فلسطين قلب العالم العربي، إذ إنّ في قيامها مزايا للأتراك لا يحصرها عدّ، كشطر العالم العربيّ وتفتيت وحدته، وفصل فلسطين عن مصر وسورية ولبنان والعراق وسائر البلاد العربيّة، والحيلولة دون اتّصال العرب بعضهم ببعض جوًّا وبرًّا وبحرًا. «فكان في كلّ عدد من أعداد الكرمل ينبّه إلى الخطر الصهيونيّ، ولكنّ صيحاته لاقت السخرية والاستهزاء. ومن فرط سذاجة عرب ذلك العهد لقّب الكثيرون نصّارًا بمجنون الصهيونيّة»[٩]. وكانت هذه الجريدة انتفاضة ثقافيّة سياسيّة أقضّت مضجع الحاكم التركيّ، وواصلت

(٩) يعقوب العودات: من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، ص ٦٣٢.

الصدور حتّى الحرب العالميّة الأولى، إذ اضطرّ نصّار إلى التنكّر والهرب من بطش الحاكم التركيّ الجلاّد جمال باشا. فقد دعا نصّار إلى ثورة عربيّة توحّد الهلال والصليب لإقامة دولة عربيّة قوميّة حديثة. ولقد اكتسبت الجريدة شعبيّتها في صراحة موقفها ووضوح توجّهها ولم تتعرّض أبدًا للأمور الفرديّة والشخصيّة ولم تفتح الباب للمهاترات الكلاميّة.

«ومنذ صدور الكرمل في ٢٧-١٢-١٩٠٨ وحتّى صدور العدد الأخير يوم ٢-٨-١٩٤١ في عددها رقم ٣٤٢١ مع إسقاط خمسة أعوام احتجبت فيها لنشوب الحرب العالميّة الأولى، لا نجد فرقًا واحدًا لجهة الطباعة والتبويب والتحرير والأغلاط المطبعيّة واللغويّة الكثيرة. فلم تجذب صورة الصحيفة الخارجيّة القرّاء، والورق الذي طبعت عليه مدّة ثلاثين سنة يكاد يكون من النوع نفسه، وكذلك الأحرف لم تتغيّر، وهي في ذلك لم تستطع أن تباري صحيفة جذّابة كصحيفة فلسطين، إضافة إلى أنّ أسلوب نصّار كان ركيكًا وغير مصقول»[١٠]. كما أنّ نجيب نصّار نفسه يعترف بهذه الهفوات. «كانت مطبعته تتألّف من غرفتين صغيرتين وعدّة جوارير للحروف ويشتغل فيها عاملان. لم يكن لها مراسلون يعملون فيها وكانت معظم الكتابات فيها من إعداد رئيس التحرير أو الهواة أو الأصدقاء. وكان هو نفسه الذي يحرّر الجريدة وينضّد حروفها ويعمل على توزيع نسخها وكتابة عناوين مشتركيها، وكانت الكرمل شبيهة بالصحف الأخرى التي عايشتها في القدس، بلا تبويب ولا هيئة تحرير ولا مراسلون يعملون فيها، وإن كان هناك مخبرون متطوّعون كثر في مختلف المناطق الفلسطينيّة. ويظهر أنّ نفوذ الجريدة أخذ في الهبوط من سنة ١٩٢٩، فانقلبت إلى جريدة مملّة، ولم يستطع صاحبها أن ينافس الجرائد العربيّة الحديثة التي أخذتْ تتطوّر وتتحسّن في عهد الانتداب البريطانيّ وتظهر بحلّة جديدة غير الحلّة العثمانيّة القديمة»[١١]. وعند نشوب الحرب

---

(١٠) يعقوب يهوشع: تاريخ الصحافة العربيّة الفلسطينيّة، حيفا، شركة الأبحاث العلميّة، ١٩٨١ ص ٤٣٧.

(١١) المرجع نفسه، ص ٤٣٧.

العالميّة الثانية، خارت قوّة صاحبها وتوقّفت عن الصدور نهائيًا. وصدرت الجريدة في ٢ آذار ١٩٤٠ في السنة الثانية والثلاثين بصورة أسبوعيّة وبدأت تصدر مؤقّتًا صباح كلّ يوم سبت ب ١٢ و١٦ صفحة وبدل اشتراكها جنيه فلسطينيّ في السنة، وقد سمّاها نجيب نصّار بـ الكرمل الجديد، ولقد شعر صاحبها بأنّها تلفظ أنفاسها الأخيرة فنشر مقالة يوم السبت ١٧ آب ١٩٤٠ اعتبرها وصيّته الأخيرة.

وكانت الكرمل فتحًا ريادِيًّا في مجال الصحافة السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والأدبيّة، كذلك كانت مجلّة الفنائس العصريّة لخليل بيدس. وفي العشرينات كانت الصحف قد صدرت من قبل المتنوّرين والمعلّمين الأدباء والذين أرادوا أن تكون هذه الصحف أدوات نهضة شاملة للأمّة. كما صدرت الصحف التي عبّرت عن تيّارين أساسيّين في الحركة القوميّة: المجلسيّين برئاسة الحاج أمين الحسيني والمعارضين بزعامة راغب النشاشيبي. كما صدرت الصحف التي عبّرت عن التيّار اليساريّ الاشتراكيّ الوطنيّ أو التي كانت موالية السلطة. ولقد تقلّبت سياسة جريدة الكرمل خلال صدورها، فبعد أن هادنت سلطات الانتداب في بداية صدورها بعد الحرب العالميّة الأولى، عادت ووقفت إلى جانب الحركة الوطنيّة في وجه سياسة الانتداب. ولقد عالجت الكرمل القضيّة الفلسطينيّة طوال صدورها معالجة جادّة ومكثّفة أكسبت صاحبها وبحقّ اسم أب فلسطين وشيخ الصحافة الفلسطينيّة. ولقد نجح في إثارة الرأي العامّ ضدّ الهجرة والاستيطان اليهوديّ، ودبّج مئات المقالات لتوضيح حقوق الشعب الفلسطينيّ ومصير فلسطين الغارق في ضبابيّة مزمنة.

«حمل نجيب نصّار أعباء القضيّة الفلسطينيّة منذ الحكم التركيّ، ونشرت الكرمل سلسلة من المقالات تندّد بالهجرة اليهوديّة إلى فلسطين ممّا أثار الحكم التركيّ ضدّه بتحريض من الحاخاميّة اليهوديّة لدى الباب العالي. وكانت جريدة الكرمل قد حدّدت لنفسها موقفًا متميّزًا من الأطراف المشاركة في الحرب العالميّة الأولى، إذ دعا نجيب نصّار إلى ضرورة عقد حلف صداقة مع أنجلترا وليس مع ألمانيا، وقد استند في ذلك

لأسباب أهمّها، أنّ شطآن البلاد التي تحت سلطة تركيا سوف تكون عرضة لقصف سفن الأسطول البريطانيّ، ولذلك علينا تفادي ذلك وحماية مدننا من احتمال التدمير. وكانت السياسة الألمانيّة قد قامت بدور في اجتذاب الرجل المريض إلى جانبها، ونصح نجيب نصّار تركيا بالبقاء على الحياد، ولكنّ هذه الآراء كانت منافية لرغبات المسؤولين العسكريّين الأتراك من جهة، والسفير الألمانيّ في الآستانة من جهة أخرى. وحاول القنصل الألمانيّ العامّ إقناع نصّار بالكفّ عن الحملة التي شنّها على الحلف الألمانيّ العثمانيّ، ولكنّه أبى الدفاع عن سياسة تؤذي قومه في صميم مصالحهم، ولمّا باءت جهود المسؤولين من الأتراك والألمان بالفشل اتّهموا نصّار بالخيانة العظمى. فصدر الأمر باعتقاله العام ١٩١٥ ولكنّه هرب بأعجوبة وبقي مشرّدًا بين قبائل البدو»[١٢]. «وراح نصّار يتنقّل بالخفاء في بعض المدن والقرى الفلسطينيّة إلى أن أتيح له الوصول إلى شرق الأردنّ. فنزل على صديق له أكرم وفادته وعرّفه بعشيرته بقوله: تخاصم ضيفنا مع أهله فجاءنا ليشتري فدّانين يعتاش منهما. واستعان باسم مستعار اختاره لنفسه وهو الشيخ مفلح الغسّانيّ. ولمّا أعلنت الدولة العثمانيّة عن جائزة ماليّة لمَن يرشد إليه أو يقبض عليه قرّر الغسّانيّ أن يسلّم نفسه إلى السلطة العثمانيّة، بعد تغيّبه ثلاث سنوات، فسجنته في السجن العرفيّ في دمشق، وهو سجن اشتهر بقسوة معاملة المسجونين فيه، حتّى إن بالكاد كان يخرج المسجون منه حيًّا. وقُدّم إلى المحاكمة بتهمة الخيانة العظيمة إلاّ أنّه بُرّئ منها وأفرج عنه بعد محاكمته بفترة قصيرة مع مئة سجين عربيّ»[١٣].

ويلخّص نجيب نصّار سياسة الكرمل في العهد العثمانيّ فيقول:

«تحوّلت الصحيفة لعهدتنا، فكرّسناها لخدمة الشعب الذي ذلّلته الحكومة الظالمة، والتي ما زال أنصارها يعملون على ضحيّته، حتّى صار يعتقد نفسه تمثالاً يحني ظهره صراعًا لأثقال الظلم. فالكرمل سنجتهد

(١٢) يعقوب العودات: المرجع السابق، ص ٦٣٤.
(١٣) يعقوب العودات: من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، ص ٦٣٥.

بتعريفه نسبيّته إلى حكومته ومركزه، في الهيئة الاجتماعيّة، وستنقل شكاويه من أعوان الاستبداد إلى مراجعها الرئيسيّة. ومن أجل هذه الغاية ترسل منها نسخ إلى جميع المراجع (الإيجابيّة) العالية في الآستانة والولاية والمتصرّفيّة والقدس وعكّا وإلى جميع الجرائد المهمّة... والكرمل ستنتصر للشعب في كلّ المطالب العادلة وستعاون وصيفاتها على بيان واجباته نحو الحكومة وواجبات كلّ فرد نحو الآخر... والكرمل لا تتحيَّز لفريق دون الآخر من العثمانيّين، فستخدم التاجر والصانع والزارع وكلّ فئات الشعب على السواء. فنرجو منه إقبالًا عليها ليقف على مبادئها ويعضدها مادّة ومعنى، كي تتمكّن من القيام بواجباتها نحوه...»[١٤].

وتوقّفت الكرمل عن الصدور عند نشوب الحرب العالميّة الأولى وعادت إليه بعد هذه الحرب يوم السبت ٧ شباط ١٩٢٠ وقالت إنّها جريدة يوميّة تصدر مؤقّتًا مرّتين في الأسبوع، وظلّت تصدر إلى مطلع الحرب العالميّة الثانية. وكانت في البداية أسبوعيّة ثمّ مرّتين في الأسبوع ثمّ أصبحت صحيفة يوميّة باسم الكرمل الجديد إلى عام ١٩٣٧، وصدر العدد الأخير منها في آب سنة ١٩٤١. لقد قام نصّار بتغطية صحفيّة ممتازة لما دار في العالم العربيّ وفلسطين خاصّة، وأسهب في شرح سائر الأمور في جميع الحقول الحياتيّة المختلفة. ولقد اشترك في جريدة الكرمل في السنوات الأولى من الانتداب البريطانيّ محمّد عزّت دروزه ويوسف الخطيب وخليل السكاكيني وحسن صدقي الدجّاني وسليمان التاجي الفاروقي وأسعد الشقيري وحسني عبد الهادي، ومجموعة من الأدباء والشخصيّات العربيّة الذين قاموا في حياتهم بدور مهمّ في الحركة العربيّة. وشنّ على صفحاتها حملة جريئة تحثّ الشعب على الامتناع عن بيع الأراضي للمهاجرين اليهود، تلك الحملة التي امتدّت على صفحات الكرمل حوالى خمسة وثلاثين عامًا حتّى توقّفت هذه الصحيفة نهائيًّا. حتّى إنّه اشترى أرضًا في بيسان كيلا تباع إلى غير العرب. ولم تفتح هذه الجريدة أبوابها للمهاترات

---

(١٤) محمّد سليمان: تاريخ الصحافة الفلسطينيّة، نيقوسيا، منشورات مؤسّسة بيسان، ١٩٨٧، ص ٧٨. وجريدة الكرمل العدد ١٥، ٢٧-٣-١٩٠٩.

الكلاميّة، ولم تلتزم بشكل أعمى بفئة ما، بل كانت بالمرصاد لكلّ توجّه فرديّ أو جماعيّ. لقد حارب وناضل من أجل الأرض وبقاء الفلاّح العربيّ في أرضه، وهو صاحب القول المشهور «مَن لا أرض له لا وطن له»، ومن أقواله أيضًا «إنّ الطائفيّة بذرة شرّيرة بذرها الاستعمار ليرتكز في سيادته عليها والتحكّم بمقدّراتنا عملًا بسياسة «فرّق تسد». فلنعبد الله أوّلًا ولنصلّ للوطن ثانيًا، فليس الأنبياء ولا القرآن ولا الإنجيل بحاجة إلى شجار باسم الدين، فالدين لله والوطن للجميع»[١٥]. وفي كتاباته رؤية عصريّة عقلانيّة لموضوع الوحدة الوطنيّة، فقد رأى أنّ الوطن الواحد واللغة الواحدة والتاريخ الواحد والمصير الواحد عوامل تجعل المسلمين والمسيحيّين في فلسطين أمّة واحدة. ودعا إلى صهر ولاء كلّ الطوائف الدينيّ في الولاء الأكبر كما سمّاه، الولاء لفلسطين والعروبة. ولقد أبدع في تطوير الكتابة الصحفيّة القائمة على الالتزام والصدق والأمانة والصراحة في تقصّي الحقائق، والاهتمام بكلّ مجالات الحياة.

ونشرت جريدة الوحدة التي كانت تصدر في القدس لصاحبها ورئيس تحريرها إسحق عبد السلام الحسيني كلمة بعنوان كيف نشأت جريدة الكرمل في حيفا، قالت فيها:

«أُعلن الدستور العثمانيّ في العام ١٩٠٩ فخابر نصّار بعض الصحف المنتشرة لينشر فيها مقالات متسلسلة عن الصهيونيّة، فنصحت بالتريّث إلى أن تستقرّ الحال لأنّ زعماء يهود سلانيك كان لهم ضلع كبير في الانقلاب العثمانيّ. على رغم أنّ الأستاذ نصّار لم يكن يرغب في امتهان الصحافة فقد شعر أنّ الواجب يقضي عليه بتنبيه العرب إلى الخطر الذي يهدّد بلادهم وكيانهم، فاستصدر رخصة وأنشأ جريدة الكرمل في أواخر العام ١٩٠٩... إستأنف صاحب الكرمل بعد الاحتلال البريطانيّ إصدارها بناء على إلحاح أصدقائه الكثيرين وثابر على خطّته وقام يدعو لتأليب الرأي العامّ العربيّ... وعلى رغم أنّ الكرمل تابعت سياسة موالاة الإنكليز إلاّ أنّها كانت تنتقد السياسة الإنكليزيّة المتّبعة في فلسطين وتخطّئها وتلفت

(١٥) يعقوب العودات: م. س.

أنظار مديري الإدارة والسياسة إلى وفاء العرب، وإلى أنّ مساعدة العرب على تحقيق جامعتهم وبناء أمبراطوريّتهم ضمن للبريطانيّين حماية مصالحهم وطرقهم في الشرق. ولكنّ حظّ الكرمل من الإنكليز كان أسوأ من حظّها من الأتراك، فقد أوقفوها ستّ مرّات ثمّ أوقفوها في العام ١٩٤٢ بموجب قانون الطوارئ»[١٦].

وتصف جريدة مرآة الشرق الكرملَ بقولها:

«كانت جريدة الكرمل نصف أسبوعيّة فأرهقتها ضريبة البريد وجعلتها أسبوعيّة، ولكنّها عوّضت القرّاء فصدرت في ١٢ صفحة، وهي تميل لتكون مجلّة أكثر منها جريدة. وهي أوّل مَن أشار إلى أخطار الصهيونيّة وإلى ما يرمي إليه اليهود من تأسيس حكومة في فلسطين وإعادة ملك إسرائيل. ولا أكتم القرّاء بأنّي لمّا قرأت تلك الإرهاصات قلت إنّ الكاتب جنّ أو خرف، فكيف يخشى أن ينهب اليهود قسمًا من البلاد العربيّة يحيط به العالم العربيّ من أطرافه الثلاثة. ولكن دارت الأيّام دورتها فسمعنا تصريح بلفور، ورأيت بعيني وتحقّقت جميع ما نبّهت إليه الكرمل سابقًا. هي أشدّ أعداء الصهيونيّة تحاربها بكلّ ما أوتيت من معرفة وقوّة، تفرح لنكبتهم وتغضب لنشاطهم ولا تفتر من مخاصمتهم وإن شطّت أحيانًا عن طرق الدفاع فإنّها لم تخطئ المرمى. نزعتها عربيّة إسلاميّة تقاوم سياسة الحكومة ومحاباتها للصهيونيّين، ولا تشدّد في حملاتها على الإنجليز ومشروعيّة وجودهم، بل تفضّل موالاتهم. ملحاحة إذا انتقدت شيئًا كرّرته مرارًا حتّى يضجر الناس. لها مبدأ تنتمي إليه فمَن خرج عنه خاصمته ومَن سار عليه وافقته، وتدّعي أنّها مصيبة لمّا كانت مع اللجنة التنفيذيّة وبيت الزعامة والمجلس الإسلاميّ، وهي صادقة في محاربتها هؤلاء الجماعة لأنّها ابتلتهم فخيّبوا ظنّها وأملها»[١٧].

ولم يكن نجيب نصّار أحسن من غيره من الفلسطينيّين الذين بذلوا وضحّوا في سبيل شعبهم، فلقد أصدرت سلطات الانتداب البريطانيّ

(١٦) جريدة الوحدة، ٢٣ شباط ١٩٤٦، العدد ٣٨.
(١٧) جريدة مرآة الشرق، ١٠ آذار ١٩٢٧، العدد ٤٩٧.

أوامرها بإغلاق صحيفته عدّة مرّات، ولكنّها عادت إلى الصدور وهي أقوى وأشدّ بأسًا. ووقفت إلى جانب نجيب نصّار زوجته ساذج ابنة الشيخ بديع الله بهائي العكية وكان زواجه الثاني بها، فكانت الزوجة والمحرّرة. وكانت زوجته شريكة له في المعاناة وفي شرف النضال القوميّ، وكانت أوّل سيّدة مثقّفة فلسطينيّة تدخل سجون سلطات الانتداب البريطانيّ. وقد كتب لها زوجها رسالة لطيفة قال فيها إذا لم أدخل التاريخ بفضل الكرمل فسوف أدخله بفضل زوجتي التي هي أوّل سيّدة فلسطينيّة تدخل زنازين الاحتلال دفاعًا عن فلسطين. وكتابات نصّار تركيز خاصّ على حرّيّة المرأة. وكانت زوجته الأولى لبنانيّة الأصل من الشويفات وولد منها الأبناء شفيق وأديب وشوقي وسعاد زوجة حبيب رهبه ابن الناصرة. وشاركت ساذج نصّار زوجها في تحرير الصحيفة وإعدادها، وبذلك كانت من أوائل النساء اللواتي عملن في ميدان الصحافة النسائيّة في فلسطين، فقد حرّرت صفحة خاصّة بالمرأة في جريدة الكرمل، في حين عرفت الصحف الفلسطينيّة العديد من الكاتبات اللواتي يكتبن في الصحافة ولا يعملن فيها، ونذكر منهنّ أسمى طوبي وسميرة عزّام وماري شحادة. وكانت السيّدة نصّار كاتبة وصحافيّة، وقد كانت الأكثر بين أترابها اقترابًا من الصحافة، وأنّها بهذه المشاركة قد سجّلت دورًا للمرأة في الحركة الصحافيّة الفلسطينيّة في العهد التركيّ، وذلك لأنّه لم يكن في فلسطين، ومنذ نشأت الصحافة فيها، نساء عملن في هذه المهنة، في أيّ فرع من فروعها خلال تلك الفترة.

موضوعات الجريدة

وكان نصّار في نشاطه الفكريّ والصحفيّ يهدف إلى كشف الحقيقة وأهداف الحركة الصهيونيّة السياسيّة والاستيطانيّة، وكشف الآثار المدمّرة اقتصاديًا ومعيشيًا لعمليّة بيع الأراضي وانتقالها من العرب إلى الوكالة اليهوديّة، إضافة إلى إدانة الشخصيّات العربيّة والفلسطينيّة التي باعت الأراضي وحثّ المزارعين الفلسطينيّين على تطوير الزراعة وعصرنتها.

ولقد قسّم نصّار جريدته إلى أبواب ثابتة منها الافتتاحيّة، والموقف السياسيّ، والموقف الاقتصاديّ، ومحلّيات، والزراعة، وأبناء بلاد العرب، وزاوية المرأة. كما اهتمّت الكرمل بأحوال التجّار والمثقّفين ودعا إلى إقامة روابط المعلّمين والمحامين والأطبّاء والكتّاب والصحافيّين. وفي كتاباته دعوةُ العرب إلى المثابرة على النهضة العلميّة لتطوير الزراعة وإقامة الصناعات وترقية الاقتصاد والتخطيط وبناء المناعة القوميّة الذاتيّة. كانت سياسة الجريدة الدفاع عن مطالب الشعب العادلة وبيان واجباته نحو الحكومة، والدفاع عن حقوق العمّال ومبادئ الحرّيّة. وفي ما يلي نماذج من كتابات نجيب نصّار في هذه الموضوعات:

تصفية الحساب

«جدير بنا بعد عمل سبع أو ثماني سنين أن نعيد النظر في حسابنا، نجري تصفية ما قمنا به من الأعمال الوطنيّة لنعرف ماذا ربحنا وماذا خسرنا، ولننظّم حركاتنا في المستقبل تنظيمًا يقينا خطر الخسارة ويؤمّن لنا الربح. بعد أعمال متواصلة قام بها الوطنيّون منذ الاحتلال إلى اليوم، كانت النتيجة أنّ الحركة الصهيونيّة أفلحت في إدخال أكثر من مئة ألف مهاجر البلاد، ونجحت في شراء أكثر من مليون دونم من الأراضي، وجعلت لغتها العبريّة لغة رسميّة وقبضت على معظم الموارد التجاريّة. أمّا نحن فقد نجحنا في تأليف المجلس الإسلاميّ الأعلى وتأمين خمس كراس للرئيس والأعضاء لتتنازع وتتخاصم عليها مثل أعداء يتنازعون على محافظة كيانهم وسلامة أوطانهم»[١٨].

إنتخابات البلديّات

«إنقسمنا بعضنا على بعض في انتخابات البلديّات انقسامًا أدّى إلى إجلاس بضعة ذوات على كراسيّ البلديّات والى ترك حركتَي الاستعمار الصهيونيّ والاستعمار البريطانيّ تعملان في البلاد من دون منازع أو رقيب. ظهر ممّا قمنا به من الأعمال أنّنا عبيد منافع وطلّاب كراسيّ

(١٨) جريدة الكرمل، ١٩ حزيران ١٩٢٧.

ورواتب، لا خدمة أوطان وحماة مصالح عامّة، فلذلك كانت كلّ تجارتنا الوطنيّة خاسرة»[١٩].

الصهيونيّون وفلسطين

يكتب جابوتنسكي وتنشر التيمس «أنّ اليهود لا ينوون أن يحلّوا محلّ العرب الذين يقطنون في الأراضي الزراعيّة بمتوسّط ٧٥ نفسًا للميل المربّع إلخ». نحن نرغب في أن نصدّق هذه الأقوال ولكن ما كنّا نراه قبل الحرب من المساعي التي كان يبذلها الصهيونيّون لعزل أهل كلّ قرية كانوا يشترونها ليقوموا مقامهم [ينفي ذلك]، مع أنّ الصهيونيّين كانوا في ذلك الوقت يشترون مقاصدهم بدعوى أنّهم لا يطلبون سوى ملاجئ للمضطهدين، وأنّهم يريدون أن يقيموا ضيوفًا على العرب الكرام، ويرغبون في أن يستظلّوا بالهلال. وما رأيناه على أثر الاحتلال من مظاهرات المتطرّفين وما نراه من القوانين كقانون انتقال الأراضي الذي يكاد يحصر بيعها بالصهيونيّين، والإخطارات التي بدأ وكلاء الصهيونيّين يخطرون بها الأهل في القرايا التي استأجروها من نجيب سرسق يجعلنا لا نطمئنّ إلى مثل مخدّرات الخواجا جابوتنسكي. كنّا بالوطن القوميّ إنذارًا بمصيرنا - الوعد الذي لولاه لاستطعنا أن نوجد لفلسطين من مهاجري السوريّين المتعلّمين والمتموّلين الموجودين في أميركا عددًا يكفي لاستعمارها واستمارها. عجبًا كيف يريد اليهود أن يوجدوا لأنفسهم وطنًا في فلسطين، ويؤسّسوا ملكًا في مقاطعة صغيرة فقيرة، لا تأوي أكثر من مليون نسمة ويغوا على ثلثي المليون من أهلها فيها وهم يريدون أن يجلبوا إليها ملايين الصهيونيّين.

لا عسلك ولا إبرك

هكذا يقول للنحل الذين يخافون من إبره - يمنّ الخواجا جابوتنسكي بالملايين التي سيأتي بها اليهود لإعمار فلسطين، فنحن نرغب في أن تبقى ملايينهم لهم وتبقى بلادنا لنا - لو كان المقصود بالمال الذي

---

(١٩) جريدة الكرمل.

سيجلبه اليهود إلى فلسطين نفع الوطنيّين كما يزعم جابوتنسكي، لما رأينا مال النافعة يجبى من الأهالي والأفضليّة في العمل تُمنح لمهاجري اليهود، وما رأينا الحكومة القائمة بمال الأهالي تعطي اليهود الأفضليّة في الوظائف، ولما رأينا قانون انتقال الأراضي ومنع التصدير يحدّد علينا التصرّف في حاصلاتنا وأراضينا، ولفتحت البلاد للشركات المختلفة، وفكّت قيود البيع والشراء والمهاجرة، وما بوشر بتأليف حكومة يهوديّة منذ اليوم وقبل مصادقة جمعيّة الأمم. ثمّ تقول التيمس من عندياتها (ما ننقله عن المقطّم): «وإذا ضربنا صفحًا عما لنا من المصلحة الأدبيّة بنجاح الصهيونيّين فإنّ مصلحتنا المباشرة في فلسطين تقضي علينا بأن نخفّف أحمالنا منها بقدر الطاقة». ترى ما هي مصلحة التايمز الأدبيّة بنجاح الصهيونيّين في فلسطين؟ أهي القضاء على ما كان للعرب من الآمال ببريطانيا؟ طالما أردنا أن نحسن الظنّ بالتيمس والتمسنا الأعذار لكلّ الذين يقولون بالوطن القوميّ لغيرنا في بلادنا، ولكن يظهر أنّ التيمس لا تريد أن تخفي من الحقيقة شيئًا. ترى ما هي الأعباء التي يحمّلها العرب للبريطانيّين في فلسطين، حتّى لا ترى التيمس سبيلًا لتحقيقها إلاّ بتحقيق آمال الصهيونيّين؟

إنّ العرب في فلسطين لا يريدون أن يكونوا عبئًا ثقيلًا على بريطانيا ولا يريدون أن يحمّلوها شيئًا من النفقات الماديّة أو العناء، أمّا إذا كانت المصلحة البريطانيّة تستدعي أن يكون لبريطانيا نفوذ على فلسطين، فالأهالي يرضون بذلك إرضاء لبريطانيا، على شرط عدم العمل بوعد بلفور، ومنح البلاد حكومة وطنيّة. ونحن على يقين أنّ زعماء العرب في فلسطين يتعهّدون بجميع نفقات حكومتهم وبحفظ الأمن في بلادهم بواسطة الجند الوطنيّ وبالمحافظة على جميع المصالح البريطانيّة، ويقدّمون لبريطانيا رهائن على ذلك إن شاءت.

تقول التيمس: «إنّ كلّ ما تتنازل فرنسا عنه لفلسطين لا تتنازل عنه لـ«الأمبريالزم» البريطانيّة، بل للسياسة التي صارت بعد مؤتمر سان ريمو سياسة فرنسا كما هي سياسة بريطانيا، وهي إنشاء أمّة فلسطينيّة تتمكّن في

آخر الأمر من أن تطعم نفسها وتحمي نفسها بنفسها». خير لفرنسا ولنا أن نتنازل عن حقوقنا لـ«الأمبريالزم» البريطانيّة، من أن تجعل التايمس بريطانيا وفرنسا آلة لنزع بلاد من أصحابها ومنحها لأمّة لا حقّ لها فيها. إذا كانت التيمس مدفوعة لهذا القول بعوامل إنسانيّة فالإنسانيّة يجب ألّا تنسيها أنّ في فلسطين أمّة عربيّة لم تُسِئ إلى السياسة البريطانيّة.

إنّ اهتمام التيمس بإنشاء أمّة يهوديّة في بلاد عربيّة مأهولة، لا يكون له صدى مستحبّ في البلدان العربيّة التي لبريطانيا مصالح كبرى فيها، وإذا كانت التيمس تحسب أنّ العرب كمّيّة مهملة، فالعرب سائرون كسائر الأمم في سبيل التكوّن ولا ريب، أنّهم يميّزون بين الحسنة والسيّئة، فإذا السياسة البريطانيّة اتّبعت رأي التيمس فهي تؤلم العرب، وإذا فرنسا حافظت على أقسام البلاد التي تحت وصايتها لأهلها، فإنّ ذلك يستوجب بلا ريب امتنانهم. وعلى كلّ أنّنا ننبّه زعماءنا العرب الكبار والصغار، وكلّ متنوّر وعاقل ومخلص، إلى وجوب مضاعفة المساعي لتأليف الوحدة العربيّة، فهي وحدها تصون الحقوق العنصريّة العامّة، وتجعل الصحف الأوروبيّة تفكّر قبلما تكتب، وتنبّه كبار السياسيّين إلى المنافع التي تنالها بلدانهم من موالاة العرب وعدم التعدّي عليهم.

«وفي الختام نوجّه أنظار التيمس إلى أنّ السياسة البريطانيّة بحاجة إلى تكثير الأصدقاء وتقليل الأعداء، وأنّ بريطانيا تحسن عملًا لتجربة صداقة العرب. ولو حذت التيمس وغيرها من أمّهات الصحف البريطانيّة حذو المورنن بوست لوجدت بلا ريب لبريطانيا من العرب أصدقاء لا شكّ في أنّها لا تخسر بصداقتهم، ولاسيّما في هذا الزمن الذي كثر فيه المنتقضون على السياسة البريطانيّة، ممّا يؤلم أصدقاء بريطانيا. ولا نكتم التيمس أنّ اتّباعها السياسة اليهوديّة ومجاهرتها بلزوم عدم الاعتداد في الدوائر السياسيّة بأحلام العرب بالوحدة، صار يجعلنا نرتاب من نيّتها لجهة العرب»[٢٠].

---

(٢٠) جريدة الكرمل، ٩ كانون الأوّل ١٩٢٠.